



كيف تبدو التوبة؟

الدكتور آر. سي. سبرول

المزمور 51 هو أحد مزامير الندامة والتوبة الذي كتبه داود بعد أن واجهه النبي ناثان. أعلن ناثان أن داود ارتكبَ خطيئةً فظيعةً ضدَّ الله، عندما أخذَ بنشبع زوجةً له وقتلَ زوجَها، أوريّا.

من المهم أن نشعر بالألم والندم القلبي الذي عبّر عنه داود، لكن علينا أيضاً أن ندرك أن توبة القلب هي عملُ الله الروح القدس. تاب داود بسبب تأثير وعمل الروح القدس فيه. ليس ذلك فحسب، بل بينما كان يكتبُ هذه الصلاة، كان يكتبُها بوحى من الروح القدس. يُظهر لنا الروح القدس في مزمور 51 كيف يُنتجُ توبةً في قلوبنا. تذكر هذا بينما نتأمل في هذا المزمور.

يبدأ المزمور 51 بهذه الكلمات: "إِرْحَمْنِي يَا اللَّهُ حَسَبَ رَحْمَتِكَ. حَسَبَ كَثْرَةِ رَأْفَتِكَ أَمْحُ مَعَاصِيَّ" (مزمور 51: 1). نرى هنا عنصراً جوهرياً للتوبة. بالعادة، عندما يدرك الإنسان خطيئته ويتحوّل عنها، فإنه بذلك يلقي بنفسه على رحمة الله. الثمار الأولى للتوبة الحقيقية، هي الاعتراف بحاجتنا العميقة إلى رحمة الله. لم يطلب داود تحقيق العدالة من الله، فهو يعلم تماماً أنه لو أراد الله أن يتعامل معه وفقاً لعدالته، فسيكون مصيره الهلاك حالاً. نتيجةً لذلك، بدأ داود اعترافه بطلب الرحمة.

عندما يلتمس داود من الله أن يمحو معاصيه، فإنه يطلب منه أن يزيل اللطخة من روحه، وأن يغطّي إثمَه، وأن يطهره من الخطيئة التي أصبحت الآن جزءاً لا يتجزأ من حياته. فيقول له: "أَغْسِلْنِي كَثِيرًا مِنْ إِثْمِي، وَمِنْ خَطِيئَتِي طَهِّرْنِي!" (مزمور 51: 2).

الغفران والتطهير مترابطان، لكنهما ليسا الشيء نفسه. يكتب الرسول يوحنا في العهد الجديد: "إِنْ أَعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ، حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا

خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ" (1 يوحنا 1: 9). نتقدّم أمام الله بروح التوبة، ونعترف بخطايانا، ولا نطلب الغفران فحسب، بل أيضاً القوّة للتوقّف عن ارتكاب الخطيئة نفسها. وكما فعل داود في هذا المزمور، نطلب من الله أن يقضي على ميلنا إلى الشرّ.

يتابع داود قائلاً: "لِأَنِّي عَارِفٌ بِمَعَاصِيِّي، وَخَطِيئَتِي أَمَامِي دَائِمًا" (مزمور 51: 3). هذا ليس مُجرّد اعتراف عابر بذنبه. إنّهُ يتعذّب ويقول: "أعلم أنّي مذنب." إنّهُ لا يحاول التخفيف من ذنبه، ولا يحاول تبرير نفسه. أمّا نحن، فغالبًا ما نلجأ إلى المنطق ونُسرع إلى تقديم سبب أنواع الأسباب لتبرير سلوكنا المشين. لكن في هذا النصّ، أوصلت قوّة الروح القدس داود إلى مرحلةٍ كان فيها صادقًا أمام الله، فاعترف بذنبه، مُدركًا أنّ خطيئته ستكون حاضرة أمامه بشكل دائم. لن يقدر أن يتخلّص منها بعد اليوم، وسيبقى هذا الأمر يُطارده.

ثمّ يصرخ قائلاً: "إِلَيْكَ وَحَدَاكَ أَخْطَأْتُ، وَالشَّرُّ قُدَّامَ عَيْنَيْكَ صَنَعْتُ" (مزمور 51: 4). استخدم داود صيغة المبالغة هنا، فقد أخطأ بشكل مروّع ضدّ أوريا، وعائلته، وأصدقائه، وزوجته بثشبع، وأمّة شعب الله بأكملها. لكنّ داود أدرك أنّ الخطيئة في النهاية هي تعدّد على الله، لأنّ الله هو وحده الكامل في الكون. بما أنّ الله هو ديان السماء والأرض، يُصبح تعريف كلّ الخطايا بأنّها تعدّد على شريعة الله وعلى قداسته. أدرك داود هذا الأمر

واعترفَ به. وهو لا يقلل من واقع خطيئته التي ارتكبها ضدَّ بشرٍ آخرين، بل يعترفُ بأنَّ خطيئته كانت في النهاية ضدَّ الله.

ثم أدلى داود بتصريح غالبًا ما يتمّ تجاهله. هذا التصريح موجود في الجزء الثاني من الآية 4، وهو أحد أقوى تعابير التوبة الحقيقيّة في الكتاب المقدّس: "لِكَيْ تَنْبَرَّرَ فِي أَقْوَالِكَ، وَتَزْكُوَ فِي قَضَائِكَ" (مزمور 51: 4). يقول داود بشكل أساسي: "يا الله، يحقّ لك أن تدينني، ومن الواضح أنني لا أستحقّ أكثر من دينونتك وغضبك". اعترف داود أنّ الله بلا لوم، وله كامل الحقّ في أن يدينه. لا مكان للمساومة ولا للتفاوض مع الله.

"هَآنَذَا بِالْإِثْمِ صُوِّرْتُ، وَبِالْخَطِيئَةِ حَبَلْتُ بِي أُمِّي. هَا قَدْ سُرِرْتُ بِالْحَقِّ فِي الْبَاطِنِ، فِي السَّرِيرَةِ تُعَرِّفُنِي حِكْمَةً" (مزمور 51: 5-6). لا يريدُ الله أن نعترفَ بالحقيقة فحسب، بل يريدُها أن تنبع من أعماقنا. يُقرّ داود بأنّه فشل في فعل ما أوصى به الله، وأنّ طاعته غالبًا ما هي مُجرّد طقوس خارجيّة، بدلًا من أن تكون أفعالًا نابعة من أعماق كيانه.

ثم صرخ داود مرّة أخرى طالبًا تطهيره: "طَهِّرْني بِالزُّوْفَا فَأَطْهَر. اغْسِلْني فَأَبْيَضَ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ" (مزمور 51: 7). يمكننا أن نسمع في صوت داود عجزه المطلق، فهو لم يقل: "يا إلهي، انتظر لحظة. قبل أن أكمل هذا الحوار معك في الصلاة، عليّ أن أطهر يدي. يجب أن أغتسل". أدرك داود أنّه غير قادر على إزالة لطفة ذنبه من داخله. لا يستطيع التعويض

عنها. ينبغي علينا أن نضمّ صوتنا إلى داود ونعترف بأننا لا نستطيع التكفير عن خطايانا.

في وقت لاحق، أعطى الله هذا الوعد من خلال النبي إشعياء:

"هَلَمْ نَتَحَاجَجْ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقَرْمِزِ تَبْيِضُ كَالْتَلْجِ. إِنْ كَانَتْ حَمْرَاءَ كَالذُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوفِ" (إشعياء 1: 18). يُسِرُّ اللهُ بتطهيرنا عندما نجدنا مُلَطَّخِينَ بِالْأَوْحَالِ.

ثم يقول داود: "أَسْمِعْنِي سُرُورًا وَفَرَحًا" (مزمور 51: 8أ). التوبة اختبار مؤلم. مَنْ مَنَّا يَسْتَمْتِعُ بِالاعْتِرَافِ بِخَطَايَاهُ وَالِإِقْرَارِ بِذَنْبِهِ؟ الذنب هو المدمر الأقوى للبهجة. مع أن داود لم يكن سعيدًا جدًّا خلال هذه اللحظة، إلا أنه يطلب من الله أن يشفي روحه، وأن يجعله يشعر بالبهجة والفرح مرّة أخرى. أوضح ذلك عندما قال: "فَتَبْتَهَجَ عِظَامٌ سَحَقْتَهَا" (مزمور 51: 8ب). أليست هذه عبارة شائعة؟ إنه يقول:

"يا الله، لقد سحقته. عظامي مهشمة؛ وهذا ليس من فعل الشيطان ولا ناثان، بل أنتَ مَنْ فَعَلَ هَذَا عِنْدَمَا بَكَّتْنِي عَلَى ذُنُوبِي. لذلك، أنا أقفُ أمامك كرجل مُحطَّم، والطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها أن أستمرّ في حياتي، هي بأنْ تشفيني وتعيد لي الفرح والابتهاج.

بعد ذلك يقول: "أَسْتُرُ وَجْهَكَ عَنْ خَطَايَايَ، وَأَمْحُ كُلَّ آثَامِي. قَلْبًا نَقِيًّا أَحْلُقُ فِي يَا إِلَهِي، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدَّدْ فِي دَاخِلِي" (مزمور 51: 9-10). الطريقة الوحيدة للحصول على قلب طاهر هي عندما يخلق الله قلبًا جديدًا. أنا غير قادر أن أخلق ذلك بنفسِي. الله وحده قادر أن يخلق قلبًا طاهرًا، وهو يخلق قلوبًا طاهرة عندما يمحو خطايانا.

ثم يصرخ داود بعد ذلك قائلاً: "لَا تَطْرَحْنِي مِنْ قُدَّامِ وَجْهِكَ، وَرُوحَكَ الْفُؤُوسَ لَا تَنْزِعْهُ مِنِّي" (مزمور 51: 11). أدرك داود أن هذا أسوأ ما يُمكن أن يحدث لأيّ خاطئ. إنه في الواقع يعلم أن الله سيطرده من محضره إن لم نتوقف عن عصياننا. يحذّر يسوع أن الذين يرفضونه سينفصلون عن الله إلى الأبد. لكن صلاة التوبة هي ملجأ للمؤمن. إنها استجابة تقيّة لمن يعلم أنه في الخطيئة. يجب أن يكون هذا النوع من الاستجابة علامة مميزة في حياة كلّ الذين تجددوا.

يتابع داود: "رُدِّ لِي بِهَجَّةِ خَلَاصِكَ، وَبِرُوحِ مُنْتَدِبَةِ أَعْضُدِي. فَأَعْلَمُ الْآثِمَةَ طُرُقَكَ، وَالْخُطَاةَ إِلَيْكَ يَرْجِعُونَ" (مزمور 51: 12-13). كثيرًا ما نسمع أن الناس لا يحبّون التواجد مع المسيحيين لأنهم يُظهرون تعجرفًا وبرًا ذاتيًا، أو كما لو أنهم يتمتّعون بأخلاقٍ عالية، أو بقداسة أكثر من الآخرين. لكن لا ينبغي أن تكون الأمور على هذه الحال، لأنه ليس عند المسيحيين ما يدعوهم للعجرفة، فنحن لسنا أبرارًا نحاول تصحيح الأشرار. وكما قال أحدُ

الوعاظ: "الكراسة هي مجرد متسول يُخبر متسولاً آخر أين الخبز موجود." الفرق الرئيسي بين المؤمن وغير المؤمن هو الغفران، والأمر الوحيد الذي يؤهل الشخص ليصبح خادماً باسم المسيح، هو اختباره للغفران، ورغبته في إخبار الآخرين عن هذا الغفران.

"يَارَبُّ أَفْتَحْ شَفَتَيْ، فَيُخْبِرَ فَمِي بِتَسْبِيحِكَ. لِأَنَّكَ لَا تُسَرُّ بِذَبِيحَةٍ وَإِلَّا فَكُنْتُ أَقْدَمُهَا. بِمُحْرَقَةٍ لَا تَرْضَى. ذَبَائِحُ اللَّهِ هِيَ رُوحٌ مُنْكَسِرَةٌ. الْقَلْبُ الْمُنْكَسِرُ وَالْمُنْسَحِقُ يَا اللَّهُ لَا تَحْتَقِرْهُ" (مزمور 51: 15-17). هنا نجد قلب وروح التوبة النبوية كما هي ظاهرة في الإصحاح الأخير. إن الطبيعة الحقيقية للتوبة الورعة موجودة في عبارة "الْقَلْبُ الْمُنْكَسِرُ وَالْمُنْسَحِقُ يَا اللَّهُ لَا تَحْتَقِرْهُ". ما يقوله داود هو أنه لو كان قادراً أن يكفر خطاياها بنفسه، لفعل ذلك؛ أمّا واقع الحال، فأمله الوحيد هو في قبول الله له بحسب رحمته.

يُخبرنا الكتاب المقدس بشكل صريح ويُظهر لنا ضمناً أن الله يقاوم المُستكبرين، وأمّا المتواضعون فيُعطيهم نعمة. يعرف داود صحة هذه الحقيقة. وعلى الرغم من شعوره بالانكسار، إلا أنه يعرف الله ويعرف كيف يتعامل مع التائبين. إنه مُدرك بأن الله لا يكره ولا يحتقر أبداً القلب المنكسر والتائب. هذا ما يريده الله منا، وهذا ما كان يُفكر به يسوع في التطويبات عندما قال: "طُوبَى لِلْحَزَانَى، لِأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ" (متى 5: 4). لا تتعلق هذه الآية بالحزن على فقدان شخص تُحبّه فحسب، بل أيضاً بالحزن الذي

نختبره عندما نشعر بتبكيّت خطيئتنا. يؤكّد لنا يسوع أنّه عندما نحزن على خطايانا، فإنّ الله سيعزّينا بواسطة روحه القدّوس.

أنا أنصح جميع المسيحيّين أن يحفظوا المزمور 51 عن ظهر قلب، فهو نموذج عن التوبة الصادقة. لقد تقدّمت من الربّ مرّات عديدة في حياتي لأقول له: " قَلْبًا نَقِيًّا أَحْلُقْ فِيَّ يَا اللَّهُ، " أو " أَمْحُ مَعَاصِيَّ. اغْسِلْنِي كَثِيرًا مِنْ إِثْمِي، وَمِنْ خَطِيئَتِي طَهِّرْنِي ". لقد صلّيت مرّات عديدة: "رُدّ لي بهجّة خالصك"، وصرختُ: "إِلَيْكَ وَحَدَاكَ أَخْطَأْتُ." عندما نشعر بثقل شعورنا بالذنب، تخوننا الكلمات عندما نحاول التعبير عمّا يُخالجنا خلال توبتنا أمام الله. إنّها حقًا بركة عظيمة أن تكونَ كلماتُ الكتاب المقدّس نفسُها على شفاهنا في تلك المناسبات.

هذا المقتطف مأخوذ من كُتَيْب بعنوان: ما هي التوبة؟ أسئلة حاسمة، بقلم آر. سي. سبرول

الدكتور آر. سي. سبرول

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وهي هيئة دولية للتلمذة المسيحية تقع بالقرب من مدينة أورلاندو، بولاية فلوريدا، في الولايات المتّحدة الأميركيّة. بالإضافة إلى ذلك، كان الدكتور سبرول راعياً

لكنيسة القديس أندرو التي أسّسها في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح، ورئيس تحرير مجلة تيبولتوك. بدأت خدمات ليجونير في عام 1971 باسم مركز دراسة وادي ليجونير (Ligonier Valley Study Center) في مدينة ليجونير، بولاية بنسلفانيا. في محاولة للاستجابة بشكل أكثر تأثيرًا للطلب المتزايد على تعاليم الدكتور سبرول والموارد التعليمية الأخرى للخدمة، تمّ نقل المكاتب العامة إلى مدينة أورلاندو في عام 1984، وتمّ تغيير اسم الخدمة. مع هذه الخطوة جاءت زيادة نموّ خدمة هيئة ليجونير، ومنذ ذلك الحين زاد نطاق وصول الخدمة في جميع أنحاء العالم تحت قيادة الدكتور سبرول أولاً ثمّ أعضاء هيئة التدريس في الخدمة.